((الايتام الاربعة))

---------- رحلة بحث عن سند ----------

أتذكرك يا أبي عندما صفعتني أمي بكل قواها لانني قلت اها لماذا حرقتي الاكل وبدأت هي بشتمي وأتيت انت وحضنتني وقلت لي حينها لا باس والدتك متعبة ونست الطعام على النار ولم استطع حينها ان اقول لك انها وضعت الطعام على النار وخرجت الى منزل الجيران وكنت ما ازال صغيرة واخاف ان اطفئ النار وخاصتاً بعد ان رايت دخاناً اسوداً يخرج من المطبخ وكنت دوماً اتفاجئ عندما تصفني أمي ((ابنة ابوها)) كانت باردة معنا دوماً لم يحدث وان شبعتني بكلمة او حضنتني كباقي الامهات وعلى العكس كنت انت دوماً الملاذ الأمن لي ولأخواني وصغيرة قلبي أحلام ولن انسى في احدى الليالي الشتاء البارد وبعد عودتك من العمل جلبت لنا فواكهه كنا لم نأكلها منذو فترة كنت متعب وفور وصولك بدأت أمي بالشجار وبدأت تشتكي من حالتنا المادية السيئة وبأنها سئمت مننا ومن العيش معنا وحينها حاولت تهدئتها ومن ثم ابتسمت لنا وقلت تعالوا تناولوا الفواكهه واخلدوا الى النوم لديكم مدرسة في الصباح كنه قد اعتدنا شجار أمي وتعاملها السيء معنا وتقصيرهل بتجاهك لم أكن امتلك الجرأة الكافية لاخبرك بـأنها كانت تخرج من المنزل فور ذهابك الى العمل ولم تكن تهتم بنا وبدراستنا وكم من المرات حاولت ان اطبخ لكنني كنت ما ازال صغيرة وكما يصعب علي فعل ذلك وكم من المرات قمت أنا بأستحمام اخواني حسن وفراس وأختي أحلام وكنت دوماً تخبرني بأنك فخوراً بي ولانني الاولى على صفي ولانني اعاون أمي في الاعمال المنزلية وهذا كان يجعلني اشعر بالمسؤولية رغم صغر سني وبين جدران بيتنا المبني من الطين لي ذكريات لن انساها رغم انه لم يعد منزلي وكيف لي ان انسى منزلاً كان يسكنه والدي وملجئي الوحيد وبطلي الاوحد

في احدى الليالي الشتاء كان المطر غزير جداً وتأخر والدي لم استطع ليلتها النوم وشعرت بأشتياق اليه وكأنني لم اراه منذ فترة طويلة لم اعتاد على النوم دون ان احضنه كانوا البقية نائمين فقط أنا وأمي ما نزال مستيقظين وفجأة سمعت صوت الباب دخل أبي الى المنزل وركضت اليه رغم انه كان مبلل من المطر استغرب انني لم انم بعد وطلب مني ان انام لان لدي مدرسة وليتني لم انام انتابني شعور غريب ليلتها لم افهمه بدأت بالشجار : الى متى سوف نبقى في هذا المنزل

ماء المطر يدخل الينا من السطح المثقوب أبي : اعدكي بأن كل شيء سوف يتغير قومي واحضري لنا شاي لنسهر معاً قليلاً ذهبت امي وهي غاضبة وغفوت من بعدها وفجأة استيقظت من صراخ أمي لن انسى تلك الصرخة طوال حياتي كانت تحاول ان تستيقظ والدي لكنه لا يرد ركضت امي الى الجيران واجتمعوا الناس في منزلنا وسمعت احدهم يقول صدمة عمري ((لقد فارق الحياة)) اقتربت بخطوات بطيئة وجبانه باتجاهه مسكت يداه الباردتان صرخت وصرخت لم يكن يرد كانت اسوء ليلى تمر علينا على الاطلاق وبعد فترة من رحيل والدي بدأت انه لن يعود وانني لست في حلم كان منزلنا هادئ وبارد وخالي من الحنان عملت حينها ان مسؤولتي زادت اكثر وفي ذلك الاثناء اتت احلام وقالت لي : الهام الم تقولين انهم اخذواوالدي الى المستشفى لما لم يعود لقد مر الكثير ، أنا : سيعود اذا اهتميتي الى دراستك واصبحتي الاولى على صفك وجينها وعدتني بذلك وهي لا تعلم انني اكذب عليها وفي صباح اليوم التالي استيقظت لكي اذهب الى المدرسة كنت اقوم بوضع الكتب في الحقيبة دخلت أمي وقامت بسحب الكتب من يدي ورمتها على الارض أمي : الا ترين انكي عديمة الاحساس لم يعد لدينا الامكانية لن يكون هناك مدرسة بعد الان . صعقت من كلامها وعاندتها وحاولت ان الملم كتبي لكنها دفعتني وقامت بتمزيق كتبي جلست ابكي كنت اضعف من ان اواجهها قامت بابطالي اخي الصغير فراس الى جان وقالت له : اسمع يا صغيري من اليوم سوف تذهب الى الشوارع والى البيوت والسوق وسوف تطلب من الناس نقوداً وتقول لهم انك يتيم وحالتك المادية صعبة ، وعندما حاولت ان اقول اها لماذا تفعلي هكذا بنا صرخت علي و وصفتني ((ابنة ابوها)) اياكي وان تتدخلين فيما لا يعنيكي لم يكن بيدي سوى اصمت حضنت احلام وحسن وخرج فراس بملابسه الممزقة الى الشارع لكي يتسول استغلت صغر سنه لكي يكسب تعاطف الناس مرت علينا ايام صعبة جداً اصبحت اشتاق الى مدرستي وأشفق على اخواني واختي احلام وفراس الذي تغير سلوكه وأثرت به التسول مرت فترة وبدأت الاحظ ان أمي تغيب في الليل لساعات ومن ثم تعود لكنني لم اكن اعلم انها تخطط لحياة جديدة ولسنا من ضمن مخططها وفي احدى الليالي حاولت ان اغفو لكنني لم استطع كنت قد اشتقت الى والدي زكنت اتذكره وفي ذلك الاثناء نهضت أمي من الفراش وأتجهت الى خزانة ملابسها كانت تضن اننا قد نمنا ومن ثم قامت بوضع ملابسها في الحقيبة هنا علمت انها تخطط لتركنا نهضت من الفراش ((أنا)) : أمي الى اين انتي ذاهبة التفتت الي تعابير وجهها غريبة ونظرت الي نظرة غضب وقالت : اذهبي الى النوم فوراَ عدت اسألها الي اين ردت : ان لم تذهبين الى النوم فسوف اخذ معي احلام ولن تريها بعد الان وخرجت من المنزل مسرعة خفت كثيراً لم استطع النوم وهددتني بصغيرة قلبي وهي تعلم كم انا متعلقة

بأحلام تركتنا من اجل المال وحياة جديدة هربت مع رجل بعمر جدي عرفنا ذلك بعد ان انتشر الخبر بين الناس ما كان يؤلمني انها لم تكن حنونة حتى في اخر لحظة لم تلتفت حتى وفي تلك الايام كنت بأمس الحاجة الى والدي لكنه لن يعود لقد رحل بطلي وملاذي واصبحنا امام الامر الواقع وكان على اعمامنا تبنينا والكل اصبح يتحجج بظروفه الصعبة وبعد شجار قرروا اعمامنا الاربعة ان يتبنى كل واحد منهم واحداً مننا اي سوف يتم تفرقتنا وهذه كانت صدمة اخرى يصعب عليه استعيابها ومن سوف يشعر بألمي لقد اصبحنا عبئاً عليهم لا احد يرحمنا تفرقنا وكل واحد منا يعيش في منزل كنت اخجل من بين عمي واشعر انني وحيدة جداً واشتاق الى اخواني ولم يكن عمي و زوجته وبناته لطفاء معي اذكر في احدى المرات كنت اتناول الغذاء لوحدي بعيدة عن مائدة الطعام وركزت علي ابنة عمي الكبيرة وخجلت وسقط الطعام من فمي وبختني حينها وقالت : نظفي على الفور كم انتي وسخة مثل امك ... لم اكمل طعامي كان هذا مختصر لا اتعرض له كل يوم وبدأت اشتاق لاحلام كانت مثلي تماماً وكذلك حسن وفراس لم يرحمنا احد وفي احدى الايام كنت اساعد ابنة عمي في تنظيف المنزل دخل عمي احمد هو الاكبر بين اعمامي ابتسم لي وقال : تعالي الى عمكي لقد جلبت لكي حلوى كانت ابنة عمي تنظر الي نظرة احتقار ذهبت الى عمي لا اعلم ما الذي دفعني لكنني حضنته ومن ثم اجتمعوا اعمامي الاربعة وبدأ عمي احمد بالحديث : لقد وصلت لقرار سوف نجمع الاربعة في منزل واحد ضميري يأنبني ومن الظلم ان يعيشون بعيداً عن بعضهم . ومن ثم قاطعه عمي ((وليد)) وقال : من الصعب ان يستطيع احداً منا تبني الاطفال الاربعة عمي اخمد : انا سوف اقوم بتبنيهم . انصدم الجميع فعمي منفصل عن زوجته منذ سنوات ويسكن بالقرب منها من اجل اولاده رد عمي وليد قالاً: لكن من سيهتم بك وبهم انت لوحدك وقال له عمي بانه قرر يتزوج لكي تهتم زوجته به وبنا وقال بانه وجد الانسانة المناسبة ومن ثم اكمل حديثه وقال لي احضري ثيابك سوف اذهب لكي اجمع اخوانك ومن اليوم سوف تعيشون في منزلي كانت الفرحة لا تسعني كنت مستعدة ان اتحمل كل شيء فقط اريد ان اجتمع مع اخواني واحلام في منزل واحد وضعت ملابسي المثقوبة والممزقة في الحقيبة وبينما زوجة عمي وبناتها ينظرون الي نظرة اشمئزاز واخيرا وبعد عناء وايام سوداء اجتمعنا معاً قطعت على نفسي عهد انني لن اسمح لاحد ان يفرقني عنهم فمن لي سواهم تزوج عمي احمد كان الاحن علينا بعد والدي كان لا يفرق بيننا وبين اطفاله من زوجته الجديدة رغم صغر سني كنت دوم الام والاخت والسند لاخواني عدت الى المدرسة لكن اخواني واحلام لم يستطيعوا العودة لانهم اصبحوا في عمر لا يناسب المرحلة التي وصلوا اليها ورفضت المدارس قبولهم وضعت الكتب في الحقيبة واشعر بقبضة في قلبي تذكرت امي عندما

قامت بتمزيق كتبي حاولت ان تقتل طموحي لكنها نست انني ((ابنة ابوها)) كما كانت تصفني طموحة وصبورة كالوالدي انهضت بقوة كلما كسرتني الحياة وهكذا مرت الايام بسلام عمي عوضنا عن كلما ما مر رغم سوء معاملة زوجته لكن يكفي اننا في منزل واحد وفي يوم في المساء تحديداً كنت جالسة امشط شعر جمليتي احلام وسارحة بافكاري وفجاة سمعت صرخة زوجة عمي بدأت ترتفع اسرعنا اليها انا واحلام عمي كان مستلقي على الارض وهي بجانبه تصرخ لن انسى ذلك المشهد لانه ذكرني بوفاة والدي لقد غادر الحنون بلا وعي حضنت احلام بكل ما اتيت من قوة لم يعد لدينا من نلتجئ اليه لا اعلم كيف اصف شعوري في تلك الايام لقد اصبحنا ايتام للمرة الثانية وهذه المرة اصعب وهنا اصبحنا كبار انا في تسع عشرة من عمري واحلام بلغت من العمر اربعة عشر عاماً وفراس بلغ من العمر احد عشر عاماً واصبح حسن يرعى اغنام زوجة عمي وانا اقوم بالاعمال المنزلية واحلام كذلك وفراس كان من الصعب السيطرة عليه لانه منذ ان علمته أمي على التسول كان لا يجلس في المنزل مررنا بظروف تهدم الجبال وفي يوم كنت اطبخ و زوجة عمي كانت تهتم بابنها الصغير سمعتها توبخ احلام لانها لم تنظف المنزل جيداً وردت عليها احلام وقالت لها : صدقيني نظفت المنزل جيداً لكن ابنتك هي من سقطت الطعام على الارض . وبدأ صوت زوجة عمي يرتفع لم اتحمل وقلت لها : لا تحملينا مسؤولية ما يقوم به اطفالك وهنا ثار غضبها وكأنها كانت تبحث عن فرصة لطردنا من المنزل وفي ذلك الاثناء عاد حسن ومعه الماشية وسمع شجارنا مسكين كان متعب ولم يتناول الغذاء حتى قالت له زوجة عمي : خذ اخوتك واخرج من منزلي لم حينها ما نفعل ذهبنا الى ابن عمي الكبير وقلنا له ما حدث غضب كثيراً ومن تعتقد نفسها هو منزلكم كما هو منزلها ذهبنا اليها مع ابن عمي كنت خائفة جداً لانني سئمت المشاكل ومن التشتت وعدم الاستقرار بدأ ابن عمي بالحديث وهي تنظر الينا باستحقار ابن عمي : لقد قمت انتي وابي ببيع منزلهم وصرفتم كل النقود ولم يعد لديهم منزل ياويهم ومنزلكي كبير جدا ومن حقهم ان يتقاسمون المنزل وبعد شجار طويل قرروا ان يبنون لنا منزل بسيط وصغير في الطرف الاخر من منزل زوجة عمي وقام ابن عمي من خلال احد اصدقائه بتدبير دخل شهري لنا يصرف من الايتام وبدات حالتنا المادية تتحسن وهكذا عدت الى دراستي واهتم باخواني وبأحلام واصبحت اعيش من اجل سعادتهم وحمايتهم وكنت دوماً اقول لنفسي كأن اليتيم كتب لنا كان العيش بمفردنا صعب جداً لكنه اهون من العيش بذل واهانة ابي لم يكن يفارق بالي ابداً في كل اتعرض لظروف صعبة اعاتبه اين انت يا ابي لما تركتنا كنا نعيش بعز وبأمان في احضانك كنت تحتوينا دوماً احاول ان اكون قوية من اجل اخوتي وايماني القوي بالله كان دوماً يقول لي بأن الفرج قريباً وهذا ما كان يصبرني على المصاعب وفي احدى

ليالي الصيف لم استطع النوم شعرت بكأبة كان القمر ساطع جذبني المنظر جلست عند شرفة الغرفة وبدأت اتمعن بمنظر القمر والهواء الخفيف نظرت الى اعز ما عندي كانوا نائمين يا له من قدر غريب كيف اصبحنا من اطفال لا ينامون ال بحضن والدهم وكيف اصبحنا ايتام لا احد يرحم بحالنا بدأت افكر ماذا سوف يحدث لنا كيف سوف نكمل هذه الحياة وشردت بذهني وافزعني صوت طلقات الرصاص التي ارتفعت فجأة واصوات الناس بدأت ترتفع في الشارع خرجت مسرعة الى الشارع ماذا ارى الناس تقوم بوضع حقائبها في السيارة والبعض دون حقائب لكن الكل يحاول المفر وفي هذا الاثناء وجدت ابن عمي وزوجته واطفاله يتجهون الى السيارة سألته : ماذا هناك ولما الكل يحاول الهرب وقبل ان يذهب بسيارته قال لي اهربوا بسرعة لقد دخلت قوات ارهابية الى المنطقة التي بجوارينا وهم في طريقهم الينا اعذريني ليس هناك متسع من المكان لكي تأتون معي ورحل تجمدت في مكاني كأنني في حلم لكن صراخ الناس واصوات الرصاص تؤكد لي بأنه ليس حلماً دخلت الى المنزل مسرعة وايقظت اخواني واحلام والتحقنا بمجموعة من الناس المتجه الى الجبل كان المنفذ الوحيد لان خلال ساعات قليلة تم السيطرة على جميع المناطق من خلال القوات الارهابية كان طريق صعب ومتعب وبدأنا نشعر بالعطش وبألم في اقدامنا حالنا حال بقية الناس وصلنا الى الجبل متعبين وما زلنا لا نستوعب ما الذي حدث وفي اليوم التالي بدأت الاخبار تصل الينا بان القوات الارهابية تقوم بابشع جرائمها ضد الانسانية من قتل ونهب وخطف وتدمير كلنا مرعوبين وبدأت تتجه نحو الاسوء في الجبل والناس تموت من الجوع والعطش وليس هناك دعم لان كل الطرق خطرة فقط الجبل كان محمي من قبل القوات الامنية وهكذا مضى اسبوع في الجبل والناس سأت احوالهم كثيراً وبعدها بدأ يأتي الدعم قليلاً من خلال شاحنات وطائرات وبدأوا يحاولون انقاذ الناس ونقلهم الى الجانب الامن من البلد واخيراً استطعنا انا واخوتي مع مجموعة من الناس المفر من خلال الشاحنات الكبيرة وأخيراً وصلنا الى الامان وكانت المنظمات الانسانية تقوم بتقديم الدعم لمن يصلون الى الامان وينصبون الخيم لكي لا تبقى الناس بلا مأوى وكحال كل الناس سكنا في المخيم كان الوضع مزري وكل يوم العدد يزيد واجهنا الكثير من المصاعب من حر وخدمات قليلة لكنها ليست المرة الاولى التي نتعرض فيها الظروف صعبة وهكذا بدأنا من الصفر ولا نعرف كيف نبدأ وفي احدى الايام اتت الى المخيم عمتي ((وداد)) كانت متزوجة وتسكن في الطرف الامن من البلد كانت حنونة لكنها لم تكن تزورنا كثيراً عندما كنا صغار بحكم عمل زوجها وبعّد المسافة بيننا وبينها جلست معنا وكانت تنظر الينا وتبتسم والدمع يملئ عينيها ومن ثم تنظر الى خيمتنا قاطعت نظراتها بسؤالي : ماذا تريرين ان تشربين ردت علي بنبرة مبحوحة : لا شيء اتيت لاناقش معكم

موضوع جلست بدأت بالحديث : انتم تعلمون منزلي كبير جداً ولا استطيع ان اراكم تعيشون في هذه المخيمات البائسة فانتم اخر من تبقى لي من اخي فما رائيكم . صمتت للحظة لا اعلم ماذا ارد عليها لانني حقا سئمت من الانتقال كل يوم الى مكان وفي نفس الوقت كنا بحاجة الى يد العون لان حياة المخيمات صعبة جداً وافقت على طلبها لعلها تعوضنا الحرمان الذي عشناه انتقلنا الى منزل عمتي كان المنزل كبير جداً ومأثث وكل شيء متوفر لكنني كنت اخجل من زوج عمتي رغم انهم كانوا لطفاء جداً معنا مرت الايام بسلام وبعد ان تم تحرير المناطق من سيطرة القوات الارهابية قررت ان ازور قبر والدي فالدي الكثير لاخبره به وذهبت وعندما اقتربت من الوصول الى قبر والدي كات قلبي ان يخرج من مكانه وكأنني سوف اراه امامي وبخطوات بطيئة مشيت باتجاه قبر والدي اتعلم يا ابي الان فهمت لماذا كانت أمي تصفني ب((ابنة ابوها)) لم استسلم ولم اخيب ظنك بي اكملت دراستي وانا الان اعمل في منظمة انسانية تقدم الدعم للايتام وانا سعيدة جدا بقضاء وقتي معهم فأنا الاقرب لجرحهم دعني اخبرك بكل ما كتمته في هذه الفترة نسيت ان اخبرك حسن ارسل لك سلاماً معي وقال لي بأن اخبرك بأنه تزوج واصبح لديه ابنة جميلة وهو لم يأتي بحكم علمه فهو يعمل في التجارة ولكنه يعدك بأنه سوف يزورك قريباً هو وحفيدتك وايضا فراس واحلام ارسلا سلاماً معي فراس لم يعد مشاغباً ومشاكساً اصبح شاباً وسيماً وعاقلاً ويحمل المسؤولية أما احلام ((الاميرة النائمة)) فهي الان تدير امور المنزل في غيابي وعينيها تذكرني بك دوما اتعلم يا ابي اصبحت لدي عائلتين مكان عملي ومنزلي الحقيقي ففريق عملي يحبونني كثيراً ولا يستطعيون الاستغناء عني وعمتي ((وداد)) ترسل لك السلام من أوربا لقد سافرت وتركت لنا منزلها بالكامل اعلم انك سوف ترتاح في قبرك اخيراً و أعدك سوف اكرر زياراتي برفقة فراس واحلام وحسن قبلت قبره وعندما ادرت ظهري شعرت انه خلفي ويبتسم التفت الى قبره وابتسمت واكملت طريقي ولم اخبره بأنني اثناء عملي في احدى الايام كنت انا وفريق العمل نقوم بتوزيع المساعدات على المحتاجين في المخيمات و وجدت أمي بينهم حاولت ان تكلمني لكنني تجاهلتها فلم يكن لي ذكرى جميلة معها تجعلني اتعاطف معها ولست بحاجة اليها فقد تركتنا ونحن بأمس الحاجة اليها وتريد المصالحة بعد ان اصبحنا لا نحتاج اليها مطلقاً والى هنا تنتهي قصتي . ربما بما انجزته بطلة قصتنا شيئاً عادياً بالنسبة للبعض لكنه انجازاً عظيماً مقارناً بما مرت به وما واجهته من مصاعب وكيف استطاعت ان تكون السند لنفسها ولاخوتها وكيف استطاعت اكمال دراستها وطورت نفسها واحتوت اخوتها ((الهام)) ليست الفتاة الايزيدية الوحيدة التي حققت النجاح رغم الصعاب بل هي مثال للمرأة الايزيدية .